نِدَاءُ البَرِّيَّةِ

تأليف
جاك لندن

ترجمة
ندى أحمد قاسم

مراجعة
هبة نجيب مغربي



The Call of the Wild

Jack London

نِدَاءُ البَرِّيَّةِ

جاك لندن

الطبعة الأولى ٢٠١٤م
رقم إيداع ٢٠١٣/١٦٢٣١
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

لندن، جاك.
نداء البرية/تأليف جاك لندن.
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٣٨٩ ٤

١-القصص الإنجليزية

٨٢٣

رسم الغلاف: إيمان إبراهيم، تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

الفصل الأول

اِلاخْتِطَافُ

لَمْ يَقْرَأْ باك الْجَرَائِدَ، وَإِلَّا كَانَ عَلِمَ بِالْمُشْكِلَاتِ الَّتِي تَنْتَظِرُهُ، لَيْسَ هُوَ فَحَسْبُ وَإِنَّمَا كُلُّ كَلْبٍ مَفْتُولِ الْعَضَلَاتِ يَتَمَتَّعُ بِشَعْرٍ طَوِيلٍ وَكَثِيفٍ مِنْ مِنْطَقَةِ بوجيت ساوند وَحَتَّى سان دييجو. فَقَبْلَ فَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ، عَثَرَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي أَقْصَى الشَّمَالِ فِي الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ الْمُظْلِمِ عَلَى مَعْدِنٍ أَصْفَرَ يُسَاوِي الْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ، وَالْآنَ آلَافُ الرِّجَالِ يَتَوَافَدُونَ إِلَى الشَّمَالِ سَعْيًا وَرَاءَ هَذَا الْمَعْدِنِ الَّذِي يُسَمَّى بِالذَّهَبِ. وَكَانَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ يَحْتَاجُونَ إِلَى كِلَابٍ؛ كِلَابٍ مِنْ عَيِّنَةِ باك — كِلَابٍ قَوِيَّةٍ مَفْتُولَةِ الْعَضَلَاتِ وَذَاتِ شَعْرٍ كَثِيفٍ يَحْمِيهَا مِنَ الْبَرْدِ.

كَانَ باك يَعِيشُ بِمَنْزِلٍ كَبِيرٍ فِي وَادِي سانتا كلارا الَّذِي تَغْمُرُهُ الشَّمْسُ بِنُورِهَا بِكاليفورنيا. وَكَانَ مَنْزِلُ الْقَاضِي ميلر الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ عَلَى بُعْدِ مَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ، يَتَوَارَى عَنِ الْأَنْظَارِ جُزْئِيًّا بَيْنَ الْأَشْجَارِ الَّتِي يُمْكِنُ مِنْ خِلَالِهَا رُؤْيَةُ أَجْزَاءٍ مِنَ الشُّرْفَةِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِ مِنْ جَوَانِبِهِ الْأَرْبَعَةِ. كَانَتْ هُنَاكَ مَمَرَّاتٌ مُتَعَرِّجَةٌ مُغَطَّاةٌ بِالْحَصَى تَمُرُّ بَيْنَ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ تَقُودُ إِلَى الْمَنْزِلِ، وَخَلْفَ الْمَنْزِلِ كَانَتْ هُنَاكَ إِسْطَبْلَاتٌ شَاسِعَةٌ يَعْمَلُ بِهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ سَائِسِي الْخَيْلِ وَالْفِتْيَانِ، وَتَصْطَفُّ أَكْوَاخُ الْخَدَمِ الْمَكْسُوَّةُ بِالنَّبَاتَاتِ الْمُعْتَرِشَةِ، وَأَشْجَارِ الْعِنَبِ الطَّوِيلَةِ وَالْمَرَاعِي الْخَضْرَاءِ وَالْبَسَاتِينِ وَحَدَائِقِ التُّوتِ. كَمَا كَانَ هُنَاكَ بِئْرٌ كَبِيرٌ وَخَزَّانُ مِيَاهٍ أَسْمَنْتِيٌّ ضَخْمٌ يَسْتَحِمُّ فِيهِ أَبْنَاءُ الْقَاضِي ميلر فِي الصَّبَاحِ وَيَهْرُبُونَ إِلَيْهِ مِنْ حَرِّ فَتْرَةِ مَا بَعْدَ الظَّهِيرَةِ.

وَكَانَ باكُ هُوَ السَّيِّدُ فِي هَذِهِ الضَّيْعَةِ الْكَبِيرَةِ، فَهُنَا وُلِدَ وَعَاشَ لِأَرْبَعِ سَنَوَاتٍ. بِالطَّبْعِ كَانَتْ هُنَاكَ كِلَابٌ أُخْرَى، فَفِي مَكَانٍ كَبِيرٍ مِثْلِ هَذَا لَا يُمْكِنُ أَلَّا يَكُونَ هُنَاكَ آخَرُونَ غَيْرُهُ، لَكِنَّ هَذِهِ الْكِلَابَ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَزْنٌ؛ فَهِيَ تَجِيءُ وَتَذْهَبُ، وَتَسْكُنُ إِمَّا فِي وَجَارِ الْكِلَابِ الْمُزْدَحِمَةِ أَوْ تَعِيشُ فِي هُدُوءٍ فِي أَحَدِ أَرْكَانِ الْمَنْزِلِ، مِثْلَ توتس — كَلْبِ البج الْيَابَانِيِّ — أَوْ يسابل — الْكَلْبِ الْمِكْسِيكِيِّ الْأَصْلَعِ — تِلْكَ الْكَائِنَاتُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي لَمْ تَخْرُجْ قَطُّ مِنْ بَابِ الْبَيْتِ وَلَمْ تَطَأْ أَقْدَامُهَا الْأَرْضَ. وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، كَانَتْ هُنَاكَ أَيْضًا كِلَابُ فوكس تيرير — عَلَى الْأَقَلِّ عِشْرُونَ مِنْهَا — الَّتِي كَانَتْ تَنْبَحُ مُهَدِّدَةً توتس وَيسابل وَهُمَا يَنْظُرَان إِلَيْهَا مِنَ النَّوَافِذِ بَيْنَمَا تَحْمِيهَا فِرْقَةٌ مِنَ الْخَادِمَاتِ الْمُسَلَّحَاتِ بِالْمَكَانِسِ وَالْمَمَاسِحِ.

لَكِنَّ باكَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْكِلَابِ الَّتِي تَمْكُثُ فِي الْمَنْزِلِ أَوْ تَعِيشُ فِي وَجَارِ الْكِلَابِ؛ بَلْ كَانَ يَعْتَنِي بِالْمَكَانِ كُلِّهِ. فَكَانَ يَغْطِسُ بِخَزَّانِ السِّبَاحَةِ أَوْ يَذْهَبُ إِلَى الصَّيْدِ مَعَ أَوْلَادِ الْقَاضِي، وَيُرَافِقُ ابْنَتَيْهِ مولي وَأليس فِي نُزْهَاتِهِمَا الطَّوِيلَةِ حَوْلَ الضَّيْعَةِ عِنْدَ الْغُرُوبِ أَوْ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، وَفِي لَيَالِي الشِّتَاءِ كَانَ يَرْقُدُ عِنْدَ قَدَمَيِ الْقَاضِي أَمَامَ نَارِ الْمِدْفَأَةِ فِي غُرْفَةِ الْقِرَاءَةِ. وَكَانَ باك يَحْمِلُ أَحْفَادَ الْقَاضِي ميلر عَلَى ظَهْرِهِ، وَيُدَحْرِجُهُمْ عَلَى الْحَشَائِشِ، وَيَحْرُسُهُمْ فِي مُغَامَرَاتِهِمُ الْبَرِّيَّةِ نَحْوَ النَّافُورَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي فِنَاءِ الْإِسْطَبْلَاتِ، وَحَتَّى إِذَا امْتَدَّ بِهِمُ السَّيْرُ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ؛ إِلَى حَيْثُ تُوجَدُ إِسْطَبْلَاتُ الْخَيْلِ وَتَنْمُو أَشْجَارُ التُّوتِ. كَانَ يَمْشِي مِثْلَ الْمَلِكِ عِنْدَمَا يَمُرُّ مِنْ أَمَامِ كِلَابِ الْوِجَارِ وَيَتَجَاهَلُ توتس وَيسابل تَمَامًا؛ فَهُوَ الْمَلِكُ: الْمَلِكُ الْمُتَوَّجُ فَوْقَ رُءُوسِ كُلِّ مَا يَحْبُو أَوْ يَزْحَفُ أَوْ يَطِيرُ دَاخِلَ مَنْزِلِ الْقَاضِي ميلر، بِمَا فِي ذَلِكَ الْبَشَرُ.

كَانَ إيلمو وَالِدُ باك — وَهُوَ كَلْبٌ ضَخْمٌ مِنْ فَصِيلَةِ سان برنارد — صَدِيقَ الْقَاضِي الْمُقَرَّبَ، وَقَدْ حَاوَلَ باك أَنْ يَحْذُوَ حَذْوَ وَالِدِهِ. لَمْ يَكُنْ باك كَبِيرَ الْحَجْمِ؛ فَوَزْنُهُ كَانَ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ رَطْلًا فَقَطْ لِأَنَّ وَالِدَتَهُ — شيب — كَانَتْ مِنْ فَصِيلَةِ كِلَابِ شيبرد الاسْكُتْلَنْدِيَّةِ الْأَصْغَرِ حَجْمًا. وَلَكِنَّ هَذَا الْوَزْنَ إِضَافَةً إِلَى الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا باك مِنَ الْحَيَاةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي يَحْيَاهَا وَاحْتِرَامِ الْجَمِيعِ الَّذِي يَحْظَى بِهِ؛ كَانَا يَكْفِيَانِهِ لِكَيْ يَتَصَرَّفَ حَقًّا وَكَأَنَّهُ مَلِكٌ. فَطَوَالَ سَنَوَاتِ حَيَاتِهِ الْأَرْبَعِ وَمُنْذُ أَنْ كَانَ جَرْوًا، كَانَ باك يَفْتَخِرُ بِنَفْسِهِ، حَتَّى إِنَّهُ صَارَ مَغْرُورًا بَعْضَ الشَّيْءِ، كَمَا يَحْدُثُ أَحْيَانًا لِنُبَلَاءِ الْمَنَاطِقِ الرِّيفِيَّةِ. وَلَكِنَّهُ حَافَظَ

عَلَى نَفْسِهِ عِنْدَمَا أَبَى أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ كَلْبٍ مَنْزِلِيٍّ مُدَلَّلٍ، فَالصَّيْدُ وَالرَّكْضُ فِي الْهَوَاءِ الطَّلْقِ أَبْعَدَا عَنْ جَسَدِهِ الشُّحُومَ وَزَادَا مِنْ قُوَّةِ عَضَلَاتِهِ، وَكَانَ باك أَيْضًا يُحِبُّ اللَّعِبَ وَالسِّبَاحَةَ.

هَكَذَا كَانَ باك فِي خَرِيفِ عَامِ ١٨٩٧ عِنْدَمَا اجْتَاحَ هَوَسُ الْبَحْثِ عَنِ الذَّهَبِ الَّذِي اكْتُشِفَ فِي مِنْطَقَةِ كلونديك عُقُولَ الرِّجَالِ مِنْ جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ، وَجَعَلَهُمْ يَتَدَفَّقُونَ عَلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ الْمُتَجَمِّدِ. وَلَكِنَّ باك لَمْ يَكُنْ يَقْرَأُ الْجَرَائِدَ لِيَعْرِفَ هَذَا الْخَبَرَ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ مانويل الْبُسْتَانِيَّ كَانَ يُعَانِي مُشْكِلَةً خَطِيرَةً؛ أَلَا وَهِيَ حُبُّهُ لِلْمُقَامَرَةِ.

وَفِي لَيْلَةٍ شَهِدَتْ عَلَى خِيَانَةِ مانويل، كَانَ الْقَاضِي فِي اجْتِمَاعٍ، وَكَانَ الْأَوْلَادُ مَشْغُولِينَ فَلَمْ يَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مانويل وَهُوَ يَصْطَحِبُ باك مَعَهُ إِلَى الْبُسْتَانِ فِيمَا كَانَ باك يَظُنُّ أَنَّهَا نُزْهَةٌ. وَفِيمَا عَدَا رَجُلٍ آخَرَ، لَمْ يَرَهُمَا أَحَدٌ عِنْدَمَا وَصَلَا إِلَى مَحَطَّةِ قِطَارَاتٍ صَغِيرَةٍ تُدْعَى كوليدج بارك. تَحَدَّثَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى مانويل وَأَعْطَاهُ نُقُودًا.

قَالَ الرَّجُلُ الْغَرِيبُ بِصَوْتٍ أَجَشَّ لِمانويل: «رُبَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تَلُفَّ الْبِضَاعَةَ قَبْلَ أَنْ تُسَلِّمَهَا.» حِينَهَا ثَبَّتَ مانويل حَبْلًا قَوِيًّا تَحْتَ الطَّوْقِ الَّذِي يَرْتَدِيهِ باك حَوْلَ رَقَبَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ مانويل: «إِذَا ثَنَيْتَهُ سَوْفَ يَشْعُرُ بِاخْتِنَاقٍ شَدِيدٍ.» فَأَوْمَأَ الرَّجُلُ الغَرِيبُ بِرَأْسِهِ.

تَقَبَّلَ باك الْحَبْلَ بِكِبْرِيَاءٍ وَهُدُوءٍ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرُقْ لَهُ بِالطَّبْعِ، وَلَكِنَّهُ تَعَلَّمَ أَنْ يَثِقَ بِالرِّجَالِ الَّذِينَ يَعْرِفُهُمْ، وَيَحْتَرِمَهُمْ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُ هُوَ. وَلَكِنْ حِينَمَا انْتَقَلَ طَرَفُ الْحَبْلِ إِلَى يَدَيِ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ الَّذِي بَدَأَ يَسْحَبُهُ، أَخَذَ باك يُزَمْجِرُ فِي غَضَبٍ، وَلَكِنَّهُ فُوجِئَ بِالْحَبْلِ يَضِيقُ عَلَى رَقَبَتِهِ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَتَنَفَّسُ بِصُعُوبَةٍ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُعَامَلْ فِي حَيَاتِهِ قَطُّ بِهَذَا الْأُسْلُوبِ الْكَرِيهِ، وَلَمْ يَصِلْ غَضَبُهُ أَبَدًا إِلَى هَذَا الْمَدَى، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْرُبَ. وَبَعْدَ فَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ، تَوَقَّفَ قِطَارٌ فِي الْمَحَطَّةِ وَأَلْقَى بِهِ الرَّجُلَانِ فِي عَرَبَةِ الْأَمْتِعَةِ.

كَانَ أَوَّلُ مَا أَدْرَكَهُ باك بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ لِسَانَهُ يُؤْلِمُهُ وَأَنَّهُ يَتَأَرْجَحُ دَاخِلَ عَرَبَةٍ مَا. وَسُرْعَانَ مَا عَلِمَ باك أَيْنَ هُوَ مِنْ صَافِرَةِ الْقِطَارِ الْغَلِيظَةِ. لَقَدْ سَافَرَ كَثِيرًا مَعَ الْقَاضِي لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ كَيْفَ هُوَ شُعُورُ الرُّكُوبِ فِي عَرَبَةِ الْأَمْتِعَةِ. فَفَتَحَ باك عَيْنَيْهِ وَتَمَلَّكَ مِنْهُ الشُّعُورُ بِالْغَضَبِ وَالْحَنَقِ كَأَنَّهُ مَلِكٌ مَخْطُوفٌ. وَرَأَى أَمَامَهُ الرَّجُلَ الَّذِي أَخَذَهُ وَبَدَأَ يَنْبَحُ بِشَرَاسَةٍ فِي وَجْهِهِ، بَلْ وَنَجَحَ فِي أَنْ يَعَضَّ إِحْدَى يَدَيْهِ.

أَحْدَثَ نُبَاحُ باك جَلَبَةً عَالِيَةً حَتَّى إِنَّ أَحَدَ الرِّجَالِ الْمَسْئُولِينَ عَنِ الْأَمْتِعَةِ أَتَى لِيَرَى مَاذَا يَحْدُثُ. وَعِنْدَمَا رَأَى أَثَرَ الْعَضَّةِ عَلَى يَدِ الرَّجُلِ سَأَلَهُ عَمَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَكْرُوهٌ قَدْ أَلَمَّ بِالْكَلْبِ، فَكَذَبَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ: «نَعَمْ، هَذَا الْكَلْبُ يُعَانِي مِنْ نَوْبَاتِ السُّعَارِ، وَأَنَا آخُذُهُ إِلَى صَاحِبِهِ فِي سان فرانسيسكو فَهُنَاكَ طَبِيبٌ بَيْطَرِيٌّ جَيِّدٌ يُمْكِنُ أَنْ يُعَالِجَهُ.»

بَعْدَ أَنْ وَصَلَ الْقِطَارُ أَخِيرًا إِلَى سان فرانسيسكو، أَخَذَ الرَّجُلُ باك إِلَى مَخْزَنٍ صَغِيرٍ خَلْفَ إِحْدَى الْحَانَاتِ بِالْقُرْبِ مِنْ ضَفَّةِ النَّهْرِ.

قَالَ الرَّجُلُ لِعَامِلِ الْحَانَةِ مُتَذَمِّرًا: «كُلُّ مَا أَحْصُلُ عَلَيْهِ مُقَابِلَ هَذَا هُوَ خَمْسُونَ دُولَارًا.» وَأَضَافَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى يَدِهِ الْمَجْرُوحَةِ: «وَلَمْ أَكُنْ لِأَفْعَلَهَا وَلَوْ حَصَلْتُ عَلَى أَلْفِ دُولَارٍ نَقْدًا، فَهَذَا الْكَلْبُ شَرِسٌ إِلَى أَقْصَى مَدَى.»

أَجَابَهُ عَامِلُ الْحَانَةِ: «كُفَّ عَنِ الشَّكْوَى، لَقَدْ حَصَلْتَ عَلَى الْمَبْلَغِ الَّذِي اتَّفَقْنَا عَلَيْهِ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ ثُمَّ إِنَّكَ لَنْ تَرَى هَذَا الْكَلْبَ مَرَّةً أُخْرَى فِي الْمَكَانِ الَّذِي سَيَذْهَبُ إِلَيْهِ، هَذَا مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعِدَكَ بِهِ.»

تَمْتَمَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَفْرُكُ يَدَهُ الْمَجْرُوحَةَ مَرَّةً أُخْرَى: «أَتَمَنَّى ذَلِكَ، فَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّنِي لَنْ أَنْسَى مَنْ هُمْ عَلَى شَاكِلَةِ هَذَا الْكَلْبِ سَرِيعًا.»

مَعَ أَنَّ باك كَانَ مُتْعَبًا، ظَلَّ يُحَاوِلُ الْمُقَاوَمَةَ، وَلَكِنْ فِي النِّهَايَةِ أَلْقَى بِهِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ عَلَى الْأَرْضِ وَأَمْسَكُوهُ ثُمَّ خَلَعُوا الطَّوْقَ النُّحَاسِيَّ الثَّقِيلَ وَالْحَبْلَ مِنْ حَوْلِ رَقَبَتِهِ وَدَفَعُوا بِهِ دَاخِلَ صُنْدُوقٍ خَشَبِيٍّ يُشْبِهُ الْقَفَصَ.

أَمْضَى باك بَقِيَّةَ اللَّيْلَةِ دَاخِلَ هَذَا الصُّنْدُوقِ، لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ مَا يَعْنِيهِ كُلُّ هَذَا. مَاذَا يُرِيدُ مِنْهُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ الْغُرَبَاءُ؟ وَلِمَاذَا يَحْبِسُونَهُ دَاخِلَ هَذَا الصُّنْدُوقِ الضَّيِّقِ؟ لَمْ يَكُنْ باك يَعْرِفُ السَّبَبَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ أَنَّ هُنَاكَ الْمَزِيدَ مِنَ الْمَتَاعِبِ فِي انْتِظَارِهِ.

كُلَّمَا أَحْدَثَ بَابُ الْمَخْزَنِ صَرِيرًا وَهُوَ يَنْفَتِحُ كَانَ باك يَهُبُّ وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ عَلَى أَمَلِ أَنْ يَرَى الْقَاضِيَ أَوْ أَحَدًا مِنَ الْأَوْلَادِ عَلَى الْأَقَلِّ. وَلَكِنَّهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ يَرَى وَجْهَ عَامِلِ الْحَانَةِ الضَّخْمِ الَّذِي كَانَ يَتَفَقَّدُهُ عَلَى ضَوْءِ شَمْعَةٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَتَحَوَّلُ ذَلِكَ النُّبَاحُ الْفَرِحُ الَّذِي يُولَدُ فِي حَلْقِ باك إِلَى زَمْجَرَةٍ شَرِسَةٍ.

وَلَكِنَّ عَامِلَ الْحَانَةِ تَرَكَهُ وَحْدَهُ وَلَمْ يُزْعِجْهُ، وَفِي الصَّبَاحِ دَخَلَ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ جُدُدٍ وَحَمَلُوا الصُّنْدُوقَ. لَقَدْ أَدْرَكَ باك مِنْ هَيْئَاتِهِمُ الَّتِي تُوحِي بِالشَّرِّ وَمَلَابِسِهِمُ الْقَذِرَةِ الرَّثَّةِ

أَنَّهُمْ لَيْسُوا إِلَّا مَزِيدًا مِنَ الرِّجَالِ الْأَشْرَارِ، وَحَاوَلَ أَنْ يَنْبَحَ وَيُزَمْجِرَ فِي وُجُوهِهِمْ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَضْحَكُونَ وَيَنْغُزُونَهُ بِالْعِصِيِّ الَّتِي كَانَ باك يُمْسِكُ بِهَا بَيْنَ أَسْنَانِهِ حَتَّى أَدْرَكَ أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ سِوَى مُضَايَقَتِهِ. فَاسْتَلْقَى فِي هُدُوءٍ وَتَرَكَهُمْ يَرْفَعُونَ الصُّنْدُوقَ إِلَى عَرَبَةٍ. ثُمَّ بَدَأَ باك وَهُوَ بِدَاخِلِ صُنْدُوقِهِ رِحْلَةً أُخْرَى طَوِيلَةً؛ فَبَعْدَ رِحْلَةِ الْعَرَبَةِ، نُقِلَ الصُّنْدُوقُ — مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الصَّنَادِيقِ وَالطُّرُودِ الْأُخْرَى — إِلَى عَبَّارَةٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى شَاحِنَةٍ أَخَذَتْهُ إِلَى مَحَطَّةِ قِطَارَاتٍ كَبِيرَةٍ، وَأَخِيرًا اسْتَقَرَّ دَاخِلَ عَرَبَةِ قِطَارٍ سَرِيعٍ. لَمْ يَكُنْ باك يَعْرِفُ مَا يَنْتَظِرُهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ مُقَاوَمَةَ شُعُورِهِ بِأَنَّهُ لَنْ يَرَى مَنْزِلَهُ الْقَدِيمَ لِوَقْتٍ طَوِيلٍ.

ظَلَّتْ عَرَبَةُ الْقِطَارِ السَّرِيعِ تَسِيرُ عَلَى الْقُضْبَانِ لِمُدَّةِ يَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ لَمْ يَأْكُلْ باك خِلَالَهُمَا أَوْ يَشْرَبْ. وَفِي غَمْرَةِ غَضَبِهِ، كَانَ يَنْبَحُ وَيُزَمْجِرُ فِي وَجْهِ كُلِّ مَنْ يَرَاهُ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ حِينَمَا كَانَ يُلْقِي بِنَفْسِهِ عَلَى قُضْبَانِ الصُّنْدُوقِ فِي غَضَبٍ، كَانَ بَعْضُ الْأَشْخَاصِ يَضْحَكُونَ وَيَغِيظُونَهُ، فَكَانُوا يُزَمْجِرُونَ وَيَنْبَحُونَ فِي وَجْهِهِ وَكَأَنَّهُمْ كِلَابٌ، أَوْ يَمُوءُونَ مِثْلَ الْقِطَطِ، أَوْ يُرَفْرِفُونَ بِأَذْرُعِهِمْ مِثْلَ الطُّيُورِ. وَكَانَ باك يَعْرِفُ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ سَخِيفٌ، وَلَكِنَّ غَضَبَهُ ظَلَّ يَتَزَايَدُ. لَمْ يَكُنْ باك مُنْزَعِجًا مِنْ عَدَمِ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، وَلَكِنَّ قِلَّةَ الْمَاءِ جَعَلَتْ لِسَانَهُ جَافًّا وَحَلْقَهُ مُحْتَقِنًا.

شَيْءٌ وَاحِدٌ فَقَطْ أَسْعَدَ باك وَهُوَ أَنَّ الْحَبْلَ قَدْ أُزِيلَ أَخِيرًا مِنْ حَوْلِ رَقَبَتِهِ، وَعَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى أَلَّا يَسْمَحَ لِأَيِّ شَخْصٍ مَرَّةً أُخْرَى أَنْ يَلُفَّ حَبْلًا حَوْلَ رَقَبَتِهِ. احْمَرَّتْ عَيْنَا باك، وَكَانَ غَاضِبًا جِدًّا لِدَرَجَةِ أَنَّ الْقَاضِيَ ميلر نَفْسَهُ لَوْ رَآهُ مَا كَانَ لِيَعْرِفَهُ. وَكُلُّ مَنْ رَأَى باك فِي الْقِطَارِ سَعِدَ جِدًّا عِنْدَمَا نَزَلَ الصُّنْدُوقُ الَّذِي يَحْمِلُهُ أَخِيرًا مِنَ الْقِطَارِ فِي سياتل.

حَمَلَ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ الصُّنْدُوقَ الْخَشَبِيَّ بِحَذَرٍ مِنَ الْعَرَبَةِ إِلَى فِنَاءٍ خَلْفِيٍّ صَغِيرٍ مُحَاطٍ بِجُدْرَانٍ عَالِيَةٍ، وَخَرَجَ رَجُلٌ بَدِينٌ يَرْتَدِي سُتْرَةً حَمْرَاءَ وَوَقَّعَ بِطَاقَةَ الِاسْتِلَامِ لِلسَّائِقِ، ثُمَّ أَعْطَاهُ السَّائِقُ أَيْضًا خِطَابًا مِنْ عَامِلِ الْحَانَةِ فِي سان فرانسيسكو وَالَّذِي قَرَأَهُ الرَّجُلُ ذُو السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ جَيِّدًا. أَدْرَكَ باك أَنَّ هَذَا هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي سَيَكُونُ مُعَذِّبَهُ التَّالِيَ، فَانْدَفَعَ بِشَرَاسَةٍ فِي اتِّجَاهِ قُضْبَانِ الصُّنْدُوقِ. ضَحِكَ الرَّجُلُ ضِحْكَةً مَقِيتَةً وَأَحْضَرَ بَلْطَةً وَهِرَاوَةً.

سَأَلَهُ السَّائِقُ: «أَنْتَ لَنْ تُخْرِجَهُ مِنَ الصُّنْدُوقِ الْآنَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

فَأَجَابَهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَضْرِبُ الصُّنْدُوقَ الْخَشَبِيَّ بِالْبَلْطَةِ: «بِالطَّبْعِ سَأَفْعَلُ.»

هَرَبَ الرِّجَالُ الْأَرْبَعَةُ الَّذِينَ أَحْضَرُوا الصُّنْدُوقَ إِلَى مَكَانٍ آمِنٍ أَعْلَى أَحَدِ الْجُدْرَانِ تَحَسُّبًا مِنْ أَنْ يَهْرُبَ باك.

مَعَ أَوَّلِ صَوْتٍ لِلصُّنْدُوقِ وَهُوَ يُفتَحُ، انْدَفَعَ باك إِلَى الْأَمَامِ وَغَرَسَ أَسْنَانَهُ فِي الْقُضْبَانِ الْخَشَبِيَّةِ وَأَخَذَ يَجْذِبُهَا مِنْ مَكَانِهَا. أَخَذَ باك يَزُومُ وَيُزَمْجِرُ، فَقَدْ كَانَ يَتُوقُ لِلْخُرُوجِ مِنْ هَذَا الصُّنْدُوقِ قَدْرَ مَا كَانَ الرَّجُلُ ذُو السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ عَازِمًا عَلَى إِخْرَاجِهِ.

قَالَ الرَّجُلُ عِنْدَمَا أَحْدَثَ فَتْحَةً كَبِيرَةً بِمَا يَكْفِي لِكَيْ يَعْبُرَ باك مِنْهَا: «هَيَّا، أَيُّهَا الشَّيْطَانُ الأَحْمَرُ الْعَيْنَيْنِ.» وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ أَلْقَى بِالْبَلْطَةِ وَنَقَلَ الْهِرَاوَةَ إِلَى يَدِهِ الْيُمْنَى.

وَقَدْ كَانَ باك حَقًّا شَيْطَانًا أَحْمَرَ الْعَيْنَيْنِ؛ إِذِ اسْتَجْمَعَ قُوَاهُ لِكَيْ يَقْفِزَ عَلَى الرَّجُلِ وَقَدِ انْتَصَبَ شَعْرُهُ، وَامْتَلَأَ فَمُهُ بِاللُّعَابِ، وَلَمَعَتْ عَيْنَاهُ الْحَمْرَاوَانِ بِلَوْنِ الدَّمِ فِي جُنُونٍ. وَأَلْقَى باك جَسَدَهُ الْغَاضِبَ الَّذِي يَبْلُغُ وَزْنُهُ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ رِطْلًا عَلَى الرَّجُلِ بِكُلِّ الْغَضَبِ الْحَبِيسِ الَّذِي ظَلَّ يَتَرَاكَمُ بِدَاخِلِهِ طَوَالَ يَوْمَيْنِ بِلَيْلَتَيْهِمَا حُرِمَ فِيهِمَا مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ. وَلَكِنْ عِنْدَمَا ارْتَفَعَ جَسَدُهُ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ وَفِي مُنْتَصَفِ طَرِيقِهِ فِي الْهَوَاءِ مُتَّجِهًا لِكَيْ يَعَضَّ الرَّجُلَ تَلَقَّى ضَرْبَةً أَوْقَفَتْ حَرَكَتَهُ، وَالْتَفَّ جَسَدُهُ وَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ عَلَى ظَهْرِهِ وَجَانِبِهِ.

لَمْ يَتَلَقَّ باك فِي حَيَاتِهِ ضَرْبَةً بِالْهِرَاوَةِ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ مَا حَدَثَ لَهُ بِالضَّبْطِ. لَكِنَّهُ عَادَ وَاقِفًا عَلَى أَقْدَامِهِ وَهُوَ يُطْلِقُ زَمْجَرَةً مَا بِهَا مِنْ صُرَاخٍ أَكْثَرُ مِمَّا بِهَا مِنْ نُبَاحٍ، وَقَفَزَ فِي الْهَوَاءِ مَرَّةً أُخْرَى. وَمَرَّةً أُخْرَى تَلَقَّى ضَرْبَةً عَلَى جَسَدِهِ وَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ.

صَاحَ أَحَدُ الرِّجَالِ الْمَاكِثِينَ فَوْقَ الْجِدَارِ فِي فَرَحٍ: «إِنَّهُ مَاهِرٌ جِدًّا فِي تَرْوِيضِ الْكِلَابِ، هَذَا مَا قُلْتُهُ.»

قَالَ الرَّجُلُ ذُو السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ وَهُوَ يُرَبِّتُ بِرِفْقٍ عَلَى رَأْسِ باك: «الْكَلْبُ اسْمُهُ باك، هَكَذَا يَقُولُ الْخِطَابُ الَّذِي أَرْسَلَهُ عَامِلُ الْحَانَةِ فِي سان فرانسيسكو.»

ثُمَّ اسْتَدَارَ إِلَى الْكَلْبِ الَّذِي لَا تَزَالُ الدَّهْشَةُ تَعْتَرِيهِ وَقَالَ بِصَوْتٍ لَطِيفٍ: «حَسَنًا يَا باك، لَقَدْ تَعَارَكْنَا قَلِيلًا يَا صَغِيرِي، وَأَفْضَلُ مَا يُمْكِنُنَا فِعْلُهُ هُوَ أَنْ نَضَعَ مَا حَدَثَ وَرَاءَ ظُهُورِنَا. لَقَدْ عَرَفْتَ مَكَانَتَكَ وَأَنَا أَعْرِفُ مَكَانَتِي، كُنْ كَلْبًا حَسَنَ السُّلُوكِ وَسَوْفَ تَسِيرُ كُلُّ الْأُمُورِ عَلَى مَا يُرَامُ، أَمَّا إِذَا أَسَأْتَ التَّصَرُّفَ فَسَوْفَ تُوقِعُ نَفْسَكَ فِي مُشْكِلَةٍ، أَفَهِمْتَ؟»

عِنْدَمَا أَحْضَرَ الرَّجُلُ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَاءَ إِلَى باك، شَرِبَ باك بِنَهَمٍ، ثُمَّ الْتَهَمَ وَجْبَةً كَبِيرَةً مِنَ اللَّحْمِ النَّيِّءِ تَنَاوَلَهَا قِطْعَةً بِقِطْعَةٍ مِنْ يَدِ الرَّجُلِ.

وَمَعَ أَنَّ باك كَانَ سَعِيدًا بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، لَمْ يَكُنْ هَذَا يَعْنِي أَنَّهُ قَبِلَ مَا فَعَلَهُ الرَّجُلُ بِهِ. كَانَ باك يَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ خَسِرَ هَذِهِ الْجَوْلَةَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَسْلِمْ. فَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ الِاعْتِمَادُ عَلَى قُوَّتِهِ فَقَطْ لِكَيْ يَرْبَحَ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَى طُرُقٍ لِلنَّجَاةِ بِنَفْسِهِ لَا تَعْتَمِدُ عَلَى عَضَلَاتِهِ فَحَسْبُ، بَلْ عَلَى ذَكَائِهِ وَمَكْرِهِ أَيْضًا. لَقَدْ عَلَّمَهُ الرَّجُلُ ذُو السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ دَرْسًا لَنْ يَنْسَاهُ أَبَدًا.

الفصل الثاني

الثُّلُوجُ

مَعَ مُرُورِ الْأَيَّامِ أَتَتْ كِلَابٌ أُخْرَى، بَعْضُهَا فِي صَنَادِيقَ خَشَبِيَّةٍ وَالْبَعْضُ الْآخَرُ تَلْتَفُّ حَوْلَ رِقَابِهَا حِبَالٌ. بَعَضُ الْكِلَابِ كَانَتْ هَادِئَةً وَبَعْضُهَا كَانَ يَنْبَحُ وَيُزَمْجِرُ مِثْلَمَا كَانَ باك يَفْعَلُ عِنْدَمَا أَتَى. وَلَكِنَّ باك رَآهَا جَمِيعًا وَهِيَ تُذْعِنُ لِسَيْطَرَةِ الرَّجُلِ ذِي السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ.

وَمِنْ حِينٍ لِآخَرَ، كَانَ هُنَاكَ رِجَالٌ آخَرُونَ يَأْتُونَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يُقِيمُ فِيهِ باك وَالْكِلَابُ الْأُخْرَى وَيَتَحَدَّثُونَ إِلَى الرَّجُلِ ذِي السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ بِاهْتِمَامٍ وَيَسْأَلُونَهُ عَنِ الْكِلَابِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَعَنْ قُوَّتِهَا وَأَسْعَارِهَا. ثُمَّ يَأْخُذُ هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءُ وَاحِدًا أَوْ أَكْثَرَ مِنَ الْكِلَابِ مَعَهُمْ. كَانَ باك يَتَعَجَّبُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُونَ فَلَمْ يَعُدْ أَيٌّ مِنْهُمْ أَبَدًا. كَانَ يَشْعُرُ بِالْخَوْفِ لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَاذَا يَحْدُثُ لِلْكِلَابِ بَعْدَ ذَهَابِهَا، وَكَانَتِ السَّعَادَةُ تَغْمُرُهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ لَا يُبَاعُ فِيهَا.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ اخْتَارَ رَجُلٌ يُدْعَى بيرو باك لِيَشْتَرِيَهُ. وَكَانَ بيرو يَعْمَلُ لَدَى الْحُكُومَةِ الْكَنَدِيَّةِ، وَكَانَتْ وَظِيفَتُهُ هِيَ تَوْصِيلُ الْبَرِيدِ إِلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ، وَكَانَ يَعْرِفُ جَيِّدًا أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الْكِلَابِ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِأَدَاءِ هَذِهِ الْمَهَمَّةِ، وَكَانَ مُسْتَعِدًّا لِأَنْ يَدْفَعَ بِسَخَاءٍ مُقَابِلَ حُصُولِهِ عَلَى هَذَا النَّوْعِ. فَرِحَ بيرو جِدًّا عِنْدَمَا رَأَى باك وَسَأَلَ الرَّجُلَ ذَا السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ عَنْ ثَمَنِهِ.

قَالَ الرَّجُلُ ذُو السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ: «ثَلَاثُمِائَةِ دُولَارٍ، وَهَذَا سِعْرٌ خَاصٌّ لَكَ أَنْتَ يَا بيرو لِأَنَّكَ عَمِيلٌ مُمَيَّزٌ.» ثُمَّ ابْتَسَمَ وَاسْتَطْرَدَ قَائِلًا: «لَقَدْ أَبْقَيْتُ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ أَجْلِكَ خِصِّيصًا. اسْمُهُ باك وَهُوَ كَلْبٌ شَرِسٌ، إِنَّهُ نَوْعُ الْكِلَابِ الَّذِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِإِنْجَازِ الْعَمَلِ.»

ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ بيرو ابْتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ، فَبِالنِّسْبَةِ لِارْتِفَاعِ أَسْعَارِ الْكِلَابِ مُؤَخَّرًا بِسَبَبِ هَوَسِ الْبَحْثِ عَنِ الذَّهَبِ، كَانَ السِّعْرُ الَّذِي طَلَبَهُ الرَّجُلُ مُقَابِلَ كَلْبٍ مُتَمَيِّزٍ مِثْلِ باك مَعْقُولًا. وَكَانَ بيرو يَفْهَمُ فِي الْكِلَابِ جَيِّدًا بِفَضْلِ خِبْرَتِهِ الطَّوِيلَةِ، وَعِنْدَمَا نَظَرَ إِلَى باك عَرَفَ أَنَّهُ كَلْبٌ نَادِرٌ وَفَرِيدٌ مِنْ نَوْعِهِ، بَلْ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «قَدْ لَا أَجِدُ مِثْلَهُ.»

رَأَى باك بيرو وَهُوَ يَدْفَعُ النُّقُودَ لِلرَّجُلِ ذِي السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ، ثُمَّ قَادَهُ هُوَ وَكَلْبَةً أُخْرَى تُدْعَى كيرلي — وَهِيَ كَلْبَةٌ لَطِيفَةٌ مِنْ فَصِيلَةِ نيوفاوندلاند — إِلَى الْخَارِجِ. تَرَكَ باك وَكيرلي سياتل عَلَى ظَهْرِ سَفِينَةٍ تُدْعَى «ناروال»، وَهُنَاكَ سَلَّمَهُمَا بيرو إِلَى رَجُلٍ ضَخْمِ الْجُثَّةِ يُدْعَى فرانسوا. لَمْ يَكُنْ باك يَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَبْلُ، وَرَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يُحِبَّهُمَا، اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَعَامَلَ مَعَهُمَا بِاحْتِرَامٍ؛ فَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ بيرو وَفرانسوا كَانَا عَادِلَيْنِ وَهَادِئَيْنِ، وَأَنَّهُمَا يَعْرِفَانِ الْكَثِيرَ عَنْ كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ الْكِلَابِ.

وَهُمَا يَتَنَقَّلَانِ بَيْنَ أَسْطُحِ ناروال، قَابَلَ باك وَكيرلي كَلْبَيْنِ آخَرَيْنِ. أَحَدُهُمَا كَانَ كَبِيرًا وَلَوْنُهُ أَبْيَضُ مِثْلَ الثَّلْجِ، وَكَانَ يَبْدُو وَدُودًا وَلَكِنَّ ابْتِسَامَتَهُ كَانَتْ تُوحِي بِأَنَّهُ يُفَكِّرُ فِي خُدْعَةٍ دَنِيئَةٍ. وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ سَرَقَ بَعْضًا مِنْ طَعَامِ باك، وَبَيْنَمَا كَانَ باك يُطَارِدُهُ، اسْتَطَاعَ فرانسوا أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ الطَّعَامَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ باك وَأَعَادَهُ إِلَى باك.

وَكَانَ الْكَلْبُ الْآخَرُ الَّذِي تَعَرَّفَ عَلَيْهِ باك وَكيرلي لَا يُحِبُّ الِاخْتِلَاطَ بِالْآخَرِينَ. وَكَانَ يُدْعَى ديف، وَكُلُّ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ هُوَ الْأَكْلُ وَالنَّوْمُ وَالتَّثَاؤُبُ بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخَرِ، وَلَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ بِأَيِّ شَيْءٍ، حَتَّى عِنْدَمَا كَانَتِ السَّفِينَةُ تُوَاجِهُ أَمْوَاجًا مُتَلَاطِمَةً وَتَتَمَايَلُ مِنْ جَانِبٍ إِلَى آخَرَ. وَعِنْدَمَا كَانَ الْقَلَقُ وَالْخَوْفُ يَعْتَرِيَانِ باك وَكيرلي، كَانَ ديف يَرْفَعُ رَأْسَهُ فَقَطْ، وَيَبْدُو عَلَيْهِ الِانْزِعَاجُ، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى باك وَكيرلي وَيَتَثَاءَبُ وَيَعُودُ لِلنَّوْمِ مَرَّةً أُخْرَى.

مَرَّ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، وَلَاحَظَ باك أَنَّ الْجَوَّ يُصْبِحُ أَكْثَرَ بُرُودَةً مَعَ مُرُورِ كُلِّ يَوْمٍ. وَفِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، كَانَتِ السَّفِينَةُ هَادِئَةً وَشَعَرَتْ كُلُّ الْكِلَابِ بِالْإِثَارَةِ؛ إِذْ إِنَّهَا كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ تَغْيِيرًا سَيَحْدُثُ. وَضَعَ فرانسوا الْحِبَالَ فِي أَطْوَاقِهَا جَمِيعًا وَأَحْضَرَهَا إِلَى السَّطْحِ. وَمَعَ أَوَّلِ خُطْوَةٍ لِباك عَلَى الْأَرْضِ الْبَارِدَةِ، غَاصَتْ قَدَمَاهُ فِي مَادَّةٍ بَيْضَاءَ هَشَّةٍ تُشْبِهُ الْوَحْلَ كَثِيرًا. قَفَزَ إِلَى الْوَرَاءِ مُطْلِقًا صَوْتًا عَالِيًا مِنْ أَنْفِهِ، كَانَ الْمَزِيدُ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ الْبَيْضَاءِ يَتَسَاقَطُ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَزَّ باك جَسَدَهُ، وَلَكِنْ سَقَطَ عَلَيْهِ الْمَزِيدُ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ،

تَشَمَّمَهَا باك فِي فُضُولٍ، ثُمَّ لَعَقَ بَعْضًا مِنْهَا بِلِسَانِهِ، فَلَسَعَتْهُ قَلِيلًا ثُمَّ اخْتَفَتْ فَجْأَةً، فَحَيَّرَهُ ذَلِكَ كَثِيرًا وَحَاوَلَ مَرَّةً أُخْرَى وَلَكِنْ حَدَثَ الشَّيْءُ نَفْسُهُ. ضَحِكَتِ الْكِلَابُ الْأُخْرَى وَالْأَشْخَاصُ الَّذِينَ كَانُوا يُشَاهِدُونَهُ، وَشَعَرَ باك بِالْإِحْرَاجِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْرِفِ السَّبَبَ، فَهَذِهِ هِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ يَرَى فِيهَا الثُّلُوجَ.

لَمْ يَكُنِ الثَّلْجُ هُوَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي كَانَ عَلَى باك أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَعْتَادُ عَلَيْهِ وَيَتَعَامَلُ مَعَهُ بِمَهَارَةٍ، فَقَدْ كَانَ الْيَوْمُ الْأَوَّلُ لِباك فِي شَاطِئِ ديا أَشْبَهَ بِالْكَابُوسِ؛ فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ صَدْمَةٌ وَمُفَاجَأَةٌ جَدِيدَةٌ كُلَّ سَاعَةٍ. وَكَانَ يَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ قَدِ انْتُزِعَ مِنْ مُجْتَمَعٍ مُتَحَضِّرٍ وَأُلْقِيَ بِهِ فِي عَالَمٍ بُدَائِيٍّ. فَهُنَا لَمْ يَكُنْ يَحْيَا حَيَاةً مُرِيحَةً وَهَادِئَةً فِي مَكَانٍ تَغْمُرُهُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ مِثْلَمَا كَانَ يَعِيشُ فِي بَيْتِ الْقَاضِي ميلر لَا يَفْعَلُ شَيْئًا سِوَى التَّسَكُّعِ وَالشُّعُورِ بِالْمَلَلِ. فَهُنَا لَا يُوجَدُ شُعُورٌ بِالسَّكِينَةِ أَوِ الرَّاحَةِ، وَلَا يَنْعَمُ بِلَحْظَةِ أَمَانٍ وَاحِدَةٍ. فَفِي كُلِّ مَا حَوْلَهُ يُوجَدُ ارْتِبَاكٌ وَحَرَكَةٌ، وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ يَلُوحُ خَطَرٌ جَدِيدٌ، وَلِذَا كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْقَى مُتَيَقِّظًا طَوَالَ الْوَقْتِ؛ فَهَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصُ وَالْكِلَابُ يَخْتَلِفُونَ عَنِ الَّذِينَ عَرَفَهُمْ فِي الْمَاضِي، فَهَؤُلَاءِ خَطِرُونَ وَالْقَانُونُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ هُوَ قَانُونُ الْأَحْبَالِ وَالْأَنْيَابِ.

لَمْ يَرَ باك الْكِلَابَ تَتَعَارَكُ هَكَذَا مِنْ قَبْلُ، وَقَدْ عَلَّمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ الْأُولَى دَرْسًا لَا يُنْسَى. فَبَيْنَمَا كَانُوا يُخَيِّمُونَ قُرْبَ مَخْزَنِ الْخَشَبِ، اقْتَرَبَتْ كيرلي بِطَرِيقَتِهَا الْوَدُودَةِ مِنْ كَلْبٍ مِنْ فَصِيلَةِ الهاسكي، وَكَانَ هَذَا الْكَلْبُ فِي حَجْمِ ذِئْبٍ بَالِغٍ، وَلَكِنَّ حَجْمَهُ لَا يَكَادُ يَكُونُ نِصْفَ حَجْمِهَا، وَبِدُونِ سَابِقِ إِنْذَارٍ قَفَزَ الْكَلْبُ وَطَرَحَهَا أَرْضًا.

كَانَ هَذَا أُسْلُوبَ الذِّئَابِ فِي الْعِرَاكِ، يَقْفِزُ عَلَى خَصْمِهِ، وَيَضْرِبُهُ، ثُمَّ يَقْفِزُ مُبْتَعِدًا عَنْهُ، وَلَكِنَّ مَا حدثَ كَانَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. فَقَدْ رَكَضَ حَوَالَيْ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ كَلْبًا مِنْ كِلَابِ الهاسكي وَأَحَاطُوا بِالْكَلْبَيْنِ فِي هُدُوءٍ يُنْذِرُ بِالْخَطَرِ. لَمْ يَفْهَمْ باك سَبَبَ ذَلِكَ. حَاوَلَتْ كيرلي أَنْ تَهْجُمَ عَلَى الْكَلْبِ الْآخَرِ وَلَكِنَّهُ طَرَحَهَا أَرْضًا مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ اقْتَرَبَتِ الْكِلَابُ الْأُخْرَى وَالْتَفَّتْ حَوْلَهَا، وَأَخَذَتْ تُرْهِبُهَا وَهِيَ تَنْبَحُ وَتَعَضُّهَا.

حَدَثَ ذَلِكَ فَجْأَةً، وَلَمْ يَكُنْ مُتَوَقَّعًا بِالْمَرَّةِ حَتَّى إِنَّ باك لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ. رَأَى باك كَلْبًا اسْمُهُ سبيتز يُخْرِجُ لِسَانَهُ مِنْ فَمِهِ لِيَضْحَكَ بِطَرِيقَتِهِ الْغَرِيبَةِ، وَرَأَى أَيْضًا

فرانسوا يُمْسِكُ بِعَصًا وَيُلَوِّحُ بِهَا وَهُوَ يَرْكُضُ نَحْوَ مَجْمُوعَةِ الْكِلَابِ لِيُفَرِّقَهَا، وَكَانَ هُنَاكَ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ آخَرِينَ يُسَاعِدُونَهُ. لَمْ يَسْتَغْرِقِ الْأَمْرُ طَوِيلًا، وَلَكِنَّ كيرلي كَانَتْ قَدْ جُرِحَتْ وَأَخَذَهَا فرانسوا بَعِيدًا. رَأَى باك أَنَّ الْمَعْرَكَةَ لَمْ تَكُنْ عَادِلَةً، هَكَذَا تَتَصَرَّفُ هَذِهِ الْكِلَابُ إِذَنْ؟ عِنْدَمَا تَقَعُ تَلْتَفُّ جَمِيعُهَا لِتُهَاجِمَكَ؛ إِذَنْ فَعَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ حِذْرَهُ حَتَّى لَا يَقَعَ أَبَدًا عَلَى الْأَرْضِ. أَخْرَجَ سبيتز لِسَانَهُ وَضَحِكَ مَرَّةً أُخْرَى، وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَرِهَهُ باك أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ كَلْبٍ أَوْ إِنْسَانٍ عَرَفَهُ فِي حَيَاتِهِ.

وَقَبْلَ أَنْ يُفِيقَ باك مِنْ صَدْمَةِ مَا حَدَثَ لِكيرلي تَلَقَّى صَدْمَةً أُخْرَى. فَقَدْ ثَبَّتَ فرانسوا عَلَى ظَهْرِهِ مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَحْزِمَةِ الْمَرْبُوطَةِ بِالْمَشَابِكِ، كَانَ سَرْجًا كَالَّذِي كَانَ يَرَى النَّاسَ يَضَعُونَهُ عَلَى ظُهُورِ الْخُيُولِ فِي بَلْدَتِهِ، وَبِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي كَانَتِ الْخُيُولُ تَعْمَلُ بِهَا، بَدَأَ باك فِي الْعَمَلِ: فَكَانَ يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ الَّتِي يَرْكَبُهَا فرانسوا إِلَى الْغَابَةِ الْمَوْجُودَةِ عِنْدَ أَطْرَافِ الْوَادِي وَيَعُودُ وَمَعَهُمَا حِمْلٌ مِنَ الْأَخْشَابِ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ فِي التَّدْفِئَةِ. لَمْ يَرُقْ هَذَا الْعَمَلُ لِباك وَلَكِنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ حِكْمَةً مِنْ أَنْ يَرْفُضَ الْقِيَامَ بِهِ، فَقَدْ أَدَّى مَهَمَّتَهُ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ، وَبَذَل كُلَّ مَا فِي وُسْعِهِ مَعَ أَنَّ كُلَّ هَذَا كَانَ جَدِيدًا عَلَيْهِ. كَانَ فرانسوا صَارِمًا مَعَ الْكِلَابِ وَكَانَ سبيتز هُوَ قَائِدُهَا، فَقَدْ كَانَ هُوَ وَديف أَكْثَرَ الْكِلَابِ خِبْرَةً، وَكَانَا يُعَلِّمَانِ باك بِالنُّبَاحِ فِي وَجْهِهِ وَعَضِّهِ عِنْدَمَا يُخْطِئُ، وَقَدْ تَعَلَّمَ باك مِنْهُمَا وَمِنْ فرانسوا بِسُرْعَةٍ. فَقَبْلَ عَوْدَتِهِمْ إِلَى الْمُعَسْكَرِ كَانَ باك قَدْ تَعَلَّمَ الْوُقُوفَ حِينَمَا يَسْمَعُ كَلِمَةَ «قِفْ» وَيَمْشِي حِينَمَا يَسْمَعُ كَلِمَةَ «انْطَلِقْ»، وَأَنْ يَنْعَطِفَ عِنْدَ الْمَلَفَّاتِ، وَيَبْتَعِدَ عَنِ الْكِلَابِ الْأُخْرَى عِنْدَمَا تَنْحَدِرُ المِزْلَجَةُ الْمُحَمَّلَةُ مِنْ خَلْفِهِمْ أَسْفَلَ التَّلِّ.

وَقَدْ قَالَ فرانسوا لِبيرو: «إِنَّ الْكِلَابَ الثَّلَاثَةَ مَاهِرَةٌ جِدًّا، وَذَلِكَ الْكَلْبُ باك يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ بِكُلِّ قُوَّتِهِ، سَأَسْتَطِيعُ تَعْلِيمَهُ أَيَّ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ.»

وَبِحُلُولِ فَتْرَةِ بَعْدِ الظَّهِيرَةِ، عَادَ بيرو — الَّذِي كَانَ فِي عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ لِيَذْهَبَ لِتَوْصِيلِ مَا بِحَوْزَتِهِ مِنْ بَرِيدٍ — وَمَعَهُ كَلْبَانِ آخَرَانِ. كَانَ يَدْعُوهُمَا بيلي وَجو، وَهُمَا أَخَوَانِ مِنْ فَصِيلَةِ الهاسكي. وَمَعَ أَنَّهُمَا كَانَا مِنْ أُمٍّ وَاحِدَةٍ، كَانَا مُخْتَلِفَيْنِ تَمَامًا عَنْ بَعْضِهِمَا الْبَعْضِ، فَقَدْ كَانَ بيلي لَطِيفًا وَهَادِئَ الطِّبَاعِ، بَيْنَمَا كَانَ جو يَقِفُ عَلَى النَّقِيضِ مِنْهُ؛ حَادَّ الطِّبَاعِ وَكَئِيبًا، يُزَمْجِرُ دَائِمًا وَتَظْهَرُ فِي عَيْنَيْهِ نَظْرَةٌ خَبِيثَةٌ. رَحَّبَ باك بِالْكَلْبَيْنِ، بَيْنَمَا تَجَاهَلَهُمَا ديف، وَحَاوَلَ سبيتز إِرْهَابَهُمَا. فِي الْبِدَايَةِ حَرَّكَ بيلي ذَيْلَهُ ثُمَّ جَرَى بَعِيدًا حِينَمَا

أَدْرَكَ دَنَاءَةَ سبيتز، أَمَّا جو فَمَهْمَا حَاوَلَ سبيتز إِرْهَابَهُ كَانَ يَقِفُ فِي وَجْهِهِ، حَتَّى لَوْ شَعَرَ بِدَاخِلِهِ بِالرُّعْبِ مِنْهُ. انْتَصَبَ شَعْرُ رَقَبَةِ جو وَانْحَنَتْ أُذُنَاهُ إِلَى الْوَرَاءِ وَأَخَذَ يُزَمْجِرُ، وَكَانَ يَبْدُو شرسًا وَمُرَوِّعًا حَتَّى إِنَّ سبيتز اسْتَسْلَمَ فِي النِّهَايَةِ، وَلَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي مُطَارَدَةِ بيلي لِيَحْفَظَ مَاءَ وَجْهِهِ.

بِحُلُولِ الْمَسَاءِ أَحْضَرَ بيرو كَلْبًا آخَرَ إِلَى الْمَجْمُوعَةِ، كَانَ كَلْبًا عَجُوزًا مِنْ فَصِيلَةِ الهاسكي، وَكَانَ طَوِيلًا وَنَحِيلًا وَذَا عَيْنٍ وَاحِدَةٍ وَعَلَى وَجْهِهِ آثَارٌ لِإِصَابَةٍ فِي مَعْرَكَةٍ قَدِيمَةٍ. كَانَ يُدْعَى سوليكس — وَيَعْنِي الْكَلْبَ الْغَاضِبَ. وَعَلَى غِرَارِ ديف، لَمْ يَكُنْ يَطْلُبُ أَيَّ شَيْءٍ أَوْ يُعْطِيَ أَيَّ شَيْءٍ أَوْ يَتَوَقَّعُ أَيَّ شَيْءٍ. وَعِنْدَمَا تَحَرَّكَ بِبُطْءٍ لِيَنْضَمَّ إِلَى الْقَطِيعِ، حَتَّى سبيتز تَرَكَهُ وَشَأْنَهُ. وَلَكِنْ كَانَ لَدَى سوليكس عَادَةٌ وَاحِدَةٌ اكْتَشَفَهَا باك لِسُوءِ حَظِّهِ، كَانَ لَا يُحِبُّ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْهُ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةِ عَيْنِهِ الْمُصَابَةِ، وَقَدْ فَعَلَهَا باك بِالْخَطَأِ، فَاسْتَدَارَ سولِّيكس نَحْوَهُ وَنَبَحَ فِي وَجْهِهِ. وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، تَجَنَّبَ باك ذَلِكَ الْجَانِبَ حَيْثُ عَيْنُهُ الْعَمْيَاءُ، فَلَمْ يَقَعْ فِي أَيِّ مُشْكِلَةٍ بَعْدَ ذَلِكَ، فَيَبْدُو أَنَّ سوليكس كَانَ مِثْلَ ديف لَا يَطْمَحُ سِوَى إِلَى أَنْ يَتْرُكَهُ الْآخَرُونَ وَشَأْنَهُ.